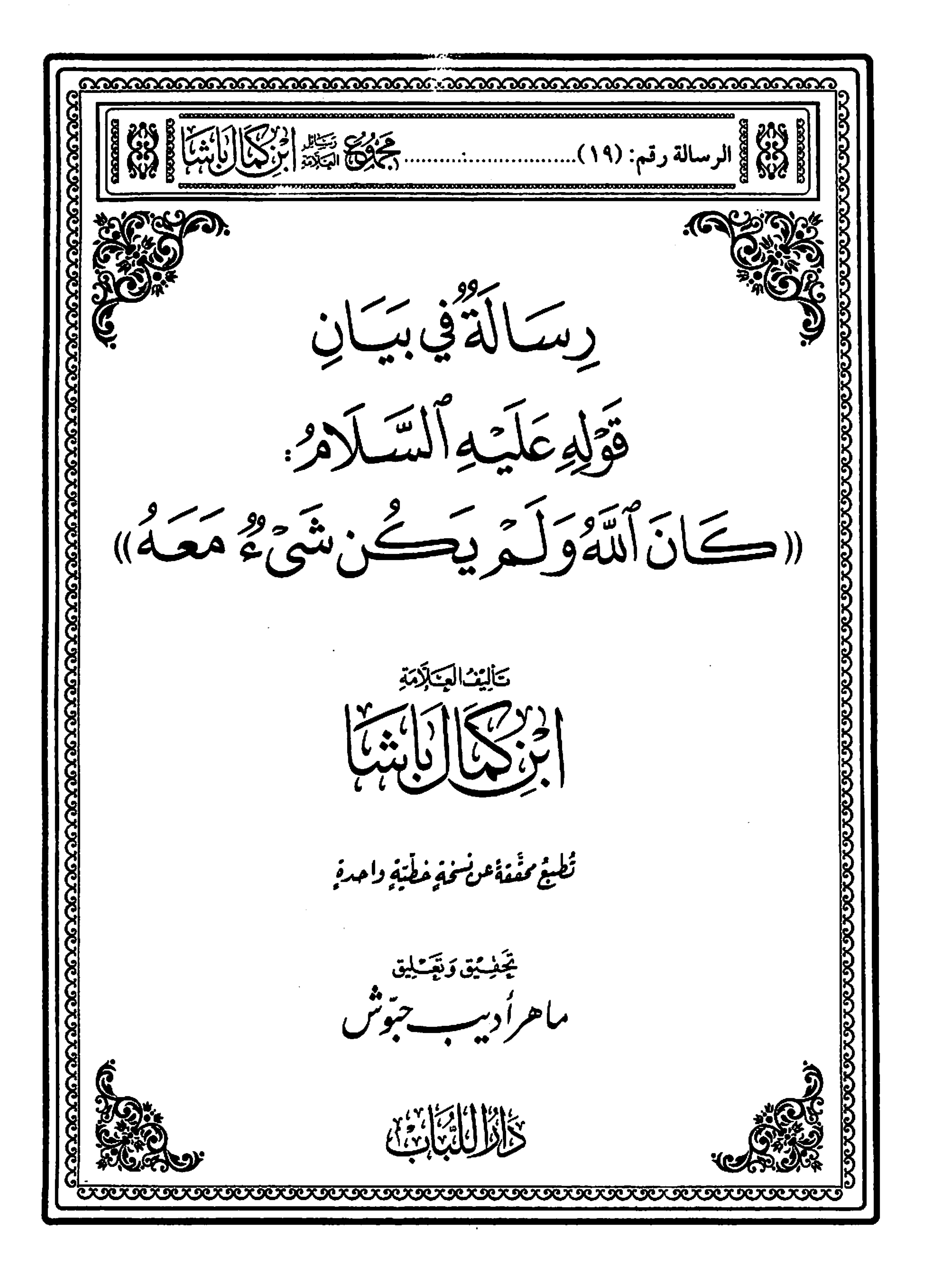


رسالة في بيان قوله عليه السلام: «كان الله ولم يكن شيء معه»

تأليف العلامة

ابن كمال باشا

تطبع محققة عن نسخة خطية واحدة

تحقيق وتعليق

ماهر أديب حبوش

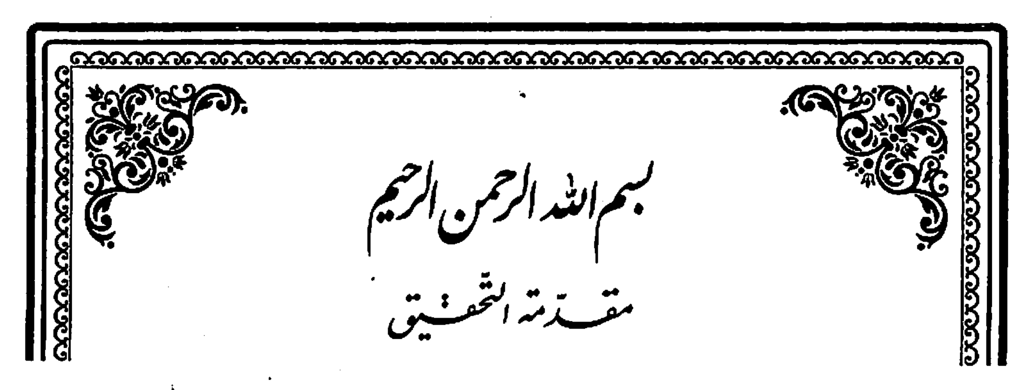
دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم توكلت عليك يا كريم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن معه شيء ولما سمعه بعض الأكابر ممن كمل عقله وكمل أدبه قال الآن كما كان قال بعض المشايخ إنما قال الآن كما كان لأن الممكنات ثابتة في حال العدم لم تشم رائحة الوجود بعد هذا الحكم على اصطلاحهم لكن هذا الوجه لا ينفي المعية مطلقا لأن هذا الوجه اعتبار من اعتبار أنه لا وجود لها فلا معية والمقصود من هذا الكلام سلب المعية من جانبه مطلقا في قول على اصطلاح أهل النظر أما ما قال في ذلك أن صدق الإيجاب في كل آن إذ لو كان معه كما كان هو مع الكل في جميع الأشياء كما كان هو معها كما قال تعالى وهو معكم أينما كنتم ولا تبرأ إلى الآية فالمعية من جانبه تعالى فكان الله مع كل شيء ولم يكن معه شيء في الوجود ولما ذكرنا ولأن العدم فلأنه لا يتصور فيه المعية هنا وجه هو الحق لا اصطلاح كلام الطائفتين فإن الحقيقة الإنسانية مع كل فرد ولو كان فرد معها لكان ذلك الفرد مع كل فرد وهو محال ولا يتوهم منه كلية الواجب تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولو قال كان الله ولم يكن معه شيء أو قال كان الله ولم يكن شيء ثم تجزأ إنما يقال الآن كما كان

والله تعالى أعلم بحقيقة الحال والعبد لا يخلو
عن الاختلال

مكتبة راغب باشا (ر)



الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المرسلين، وعلى آلهِ وصحبِهِ أجمعين.

وبعد:

فقد رَوَى البخاريُّ في «صحيحه» (كتاب بَدْءِ الخَلْقِ) (بابُ مَا جاءَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]) من حديث عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: دَخَلْتُ على النَّبيِّ ﷺ، وعَقَلْتُ ناقتي بالبابِ، فأتاهُ ناسٌ مِن بني تميمٍ فقال: «اقْبَلُوا البُشْرَى يا بَنِي تَمِيمٍ»، قالوا: قد بَشَّرْتَنا فأَعْطِنا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخلَ عليه ناسٌ مِن أهلِ اليَمَنِ، فقال: «اقْبَلُوا البُشْرَى يَا أَهْلَ اليَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»، قالوا: قد قَبِلْنا يا رسولَ اللهِ، قالوا: جِئْناكَ نَسْأَلُكَ عن هذا الأمرِ. قال: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ» فنادَى مُنادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يا ابْنَ الحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا[1].

ورواه البخاريُّ أيضاً في (كتاب التوحيد) بلفظ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٣١٩١).

(٢) رواه البخاري (٧٤١٨).

17
17

قال الحافظُ بعد أنْ ذَكر الرِّوايتين: وفي روايةِ غيرِ البخاريِّ: «ولم يَكُنْ شيءٌ معه» والقصَّةُ متَّحدةٌ، فاقتضى ذلك أنَّ الرواية وقعت بالمعنى(١).

وصحَّح الروايةَ المذكورةَ ابنُ تيميَّةَ فقال: وفي روايةٍ لغيره ـ أي: لغيرِ البخاريِّ ـ صحيحةٍ: «كانَ اللهُ ولم يَكُنْ شيءٌ مَعَه»(٢).

قلتُ: وهذه الروايةُ التي ذكرا أنها في غيرِ البخاريِّ وصحَّحها ابنُ تيميَّةَ لم أَجِدْها مُسنَدةً، وإنْ كان ابنُ الأثيرِ قد عزاها للبخاريِّ بلفظ: «كان اللهُ ولا شيءَ معه»(٣).

وكذا فَعَلَ ابنُ تيميَّة نفسُه، حيث قال: رواه البخاريُّ في ثلاثةِ مواضعَ بثلاثةِ ألفاظٍ: «كانَ اللهُ ولم يَكُنْ شيءٌ قَبْلَه» ورواه في موضعٍ: «ولم يَكُنْ شيءٌ مَعَه» ورواه في موضعٍ آخَرَ: «ولم يَكُنْ شيءٌ غيرُه»، والمجلسُ كان واحداً، لم يَقُلِ النبيُّ ﷺ إلَّا واحداً من الثَّلاث، وقد ثَبَتَ أنه قال: «ليس قَبْلَكَ شيءٌ»(٤)، واللفظان الآخران رُويا بالمعنى، وبيَّنا على كلِّ تقديرٍ أنَّ مُراد النبيِّ ﷺ جوابُ أهلِ اليمنِ عمَّا سألوه مِن ابتداءِ خَلْقِ هذا العالَم(٥).

وتابع ابنَ تيميَّةَ تلميذُه ابنُ القيِّم في عَزْوِها للبخاريِّ، موضِّحاً ما أشار إليه شيخُه

---

(١) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٢٨٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٦١).

(٣) انظر: «أسد الغابة» (٢/ ٣١).

(٤) قطعة من حديث الدعاء عند النوم رواه مسلم (٢٧١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه: «... اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ...».

(٥) انظر: «الصفدية» (١/ ١٥ ـ ١٧).

مِن جَعْلِ لفظِها مَرْجوحاً بالرِّوايةِ الأُخرى كما تقدَّم، فقال: «كانَ اللهُ ولا شيءَ معه» هذا قد رُوي في الصَّحيحِ في بعضِ ألفاظِ حديثِ عمران بن حصين رضي الله عنه، وإن كانَ اللفظُ الثابت: «كان اللهُ ولم يكنْ شيءٌ قَبْلَه» وهو المُطابِقُ لقولِهِ في الحديثِ الآخَرِ الصَّحيحِ: «أنتَ الأوَّلُ فليسَ قَبْلَكَ شيءٌ» ولم يَقُلْ: فليس مَعَكَ شيءٌ[١].

ورَوَى الإمامُ أحمدُ حديثَ عمرانَ بلفظِ: «كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ»، قال الحافظُ: وهو بمعنَى: «كان اللهُ ولا شيءَ مَعَه» وهي أصرحُ في الردِّ على مَن أثبتَ حوادثَ لا أوَّلَ لها مِن روايةِ الباب[٢]. يعني: «ولم يَكُنْ شيءٌ قَبْلَه».

النتيجة: أنَّ هذه الرِّوايةَ: «كانَ اللهُ ولم يَكُنْ شيءٌ مَعَه» ونحوَها ممَّا فيه ذكرُ المعيَّة، قد عزاها البعضُ لغيرِ البخاريِّ وآخَرونَ للبخاريِّ، لكنْ لم أَجِدْها مسنَدةً، وردَّها البعضُ كابنِ القيِّم، واستحسَنَها آخَرون كالحافظ.

ومما يتعلَّقُ بهذه الرِّوايةِ أيضاً: ما ذُكِرَ فيها مِن الزِّيادةِ في روايةٍ ذكرها ابنُ تيميَّةَ بلفظ: «كانَ اللهُ ولا شيءَ مَعَهُ، وهو الآنَ علَى ما عليهِ كان» ثُمَّ قال: وهذه الزِّيادةُ، وهو قولُه: (وهو الآنَ علَى ما عليهِ كان) كذبٌ مفترًى على رسولِ الله، اتَّفقَ أهلُ العلمِ بالحديثِ علَى أنَّه موضوعٌ مختلَقٌ وليس هو في شيءٍ مِن دواوينِ الحديثِ، لا كبارِها ولا صغارِها، ولا رواهُ أحدٌ مِن أهلِ العلمِ بإسنادٍ لا صحيحٍ ولا ضعيفٍ، ولا بإسنادٍ مجهولٍ[٣].

وذَكَر تلميذُه ابنُ القيِّم أنَّها مِن زيادةِ بعضِ المتحذلِقِينَ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ لها وَجْهينِ: أحدُهما للمَلاحِدَةِ المُبْطِلين، والثاني للموحِّدين، فقال: وأمَّا قولُه: (وهو الآنَ

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٩١).

(٢) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٤١٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٧٢).

على ما كان عليه) فزيادةٌ في الحديثِ ليستْ منه، بل زادَها بعضُ المتحَذْلِقِينَ، وهي باطلةٌ قطعاً، فإنَّ اللهَ مع خَلْقِهِ بالعلمِ والتَّدبيرِ والقدرةِ، ومع أوليائِهِ بالحفظِ والكَلَاءةِ والنُّصرة، وهُمْ معهُ بالموافَقةِ والمحبَّة، وصارَتْ هذه اللَّفظةُ مجنًّا وتُرساً للمَلَاحِدةِ من الاتِّحاديَّةِ، فقالوا: إنَّه لا وجودَ سِوَى وجودِهِ أَزَلاً وأبداً وحالاً، فليس في الوجودِ إلَّا اللهُ وَحْدَه، وكلُّ ما تراهُ وتَلْمسُه وتَذُوقُه وتَشَمُّه وتُباشِرُه فهو حقيقةُ الله، تَعَالَى اللهُ عن إفْكِهِم عُلُوًّا كبيراً.

وأمَّا أهلُ التَّوحيدِ فقد يُطْلقونَ هذه اللَّفظةَ ويريدونَ بها لفظاً صحيحاً، وهو أنَّ اللهَ سبحانهُ لم يَزَلْ مُنْفرِداً بنَفْسِهِ عن خَلْقِهِ، ليس مُخالطاً لهم ولا حالًّا فيهم ولا ممازجاً لهم، بل هو بائنٌ عنهم بذاتِهِ وصفاتِهِ[1].

فهذه مقدِّمةٌ لا بدَّ منها، ذَكَرْناها لتكونَ مَدْخلاً لفَهْمِ هذه الرسالةِ اللَّطيفةِ لعالمٍ مِن علماءِ المتأخِّرين، أَحَبَّ أنْ يقفَ عند الحديثِ المذكورِ، مِن خلالِ البحثِ في عبارةِ: (الآن كما كان)، التي عزاها لإمامٍ مِن أئمَّةِ العلم لم يسمِّه، فذكر فيه هذه السانحةَ التي قد تكون قريبةً من كلامِ ابنِ القيِّم الأخيرِ في توجيهِها عند أهلِ التَّوحيد، والبحثُ طويلٌ تكلَّم فيه كثيرٌ من العلماء[2]، ولعلَّ ما ذكرناه في هذه العُجَالةِ يَكفي لتصوُّرِ الموضوعِ، واللهُ أعلمُ.

وقد اعتمدنا في تحقيقِ هذه الرسالةِ على نسخةٍ خطِّية واحدة وقفنا عليها، وهي نسخة راغب باشا في المكتبة السليمانية، ورمزنا لها بالرمز: (ر).

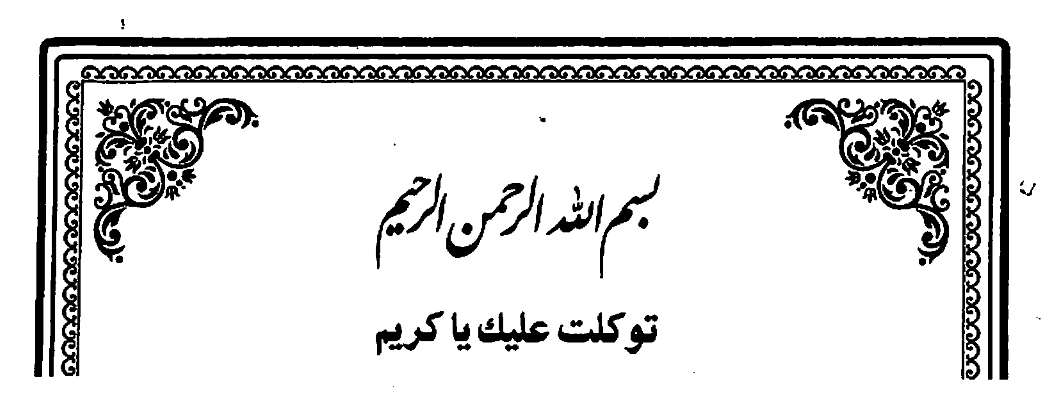
والحمدُ للهِ ربِّ العالمين

المحقق

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٢).

(٢) انظر: «نهاية الإقدام في علم الكلام» للشهرستاني (ص: ١٢)، و«الصفدية» لابن تيمية (٢/ ٢٢٣).



الحَمـدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، والصَّلاةُ على سـيِّدِنا مُحمَّدٍ وآلـهِ وصَحبِهِ أجمَعينَ؛ وبعدُ:

فقدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «كانَ اللهُ ولـمْ يكُن مَعهُ شيءٌ»، ولمَّا سَمعهُ بَعضُ الأكابرِ مِن أعلمِ عُلماءِ أهلِ الله قالَ: الآنَ كما كانَ.

قالَ المشايخُ: إنَّما قالَ: الآنَ كما كانَ؛ لأنَّ المُمكِناتِ ثابِتةٌ في حالِ العَدمِ لم تَشمَّ رائِحةَ الوُجودِ بعدُ.

هَذا تَحقيقُهمْ عَلى اصطِلاحهمْ، لكنَّ هَذا الوَجهَ لا يُنافي المعيَّةَ مُطلَقاً؛ لأنَّ هَذا الوَجهَ اعتِبارٌ مِن اعتِباراتِهمْ، فلا وُجودَ حِينئذٍ فلا معيَّةَ، والمَقصُودُ مِن هَذا الكَلامِ سَلبُ المعيَّةِ مِن جانِبنا مُطلَقاً.

فأقـولُ عَلى اصطِـلاحِ أهلِ الظَّاهـرِ: إنَّما قالَ ذلـكَ لأنَّ صِدقَ إيجَابـهِ مُحالٌ، إذ لـو كنَّـا معـهُ كما كانَ هُـو معنا، لكنَّـا معَ جَميعِ الأشـياءِ كمـا كانَ هُـو مَعها؛ كما قـالَ اللهُ تَعالـى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[1] الآيـة [محمـد: ٣٥]؛ فالمعيَّـةُ مِـن جانِبنـا محـالٌ، فـكانَ اللهُ معَ كلِّ شـيءٍ ولـمْ يكنْ معـهُ شـيءٌ [...][2] الوجود، وكما

(١) في «ر»: (والله معكم أينما كنتم ولن يتركم أعمالكم)، والمثبت موافق للآية.

(٢) كلمة غير واضحة في «ر».

ذكَرنـا، وأمَّـا القِـدمُ فلأنَّهُ لا يتصَـورُ فيـهِ المعيَّةُ، وهَذا وجـهٌ مُوافـقٌ لاصطِلاحِ كِلا الطَّائفتَيـنِ، فـإنَّ الحَقيقـةَ الإنسَـانيَّةَ مـعَ كلِّ فـردٍ، ولَـو كانَ فـردٌ معَهـا لـكانَ ذلكَ الفَـردُ مـعَ كلِّ فردٍ، وهُـو محالٌ.

ولا يُتوهَّمُ منهُ كليَّةُ الواجِبِ، تَعالى عَن ذلكَ علوّاً كَبيراً، ولو قالَ: كانَ اللهُ ولم يَكنْ مَعهُ شيءٌ، أو قالَ: كانَ اللهُ ولم يكنْ شيءٌ، لم يَجُزْ أنْ يُقالَ: الآنَ كما كانَ، واللهُ تَعالى أعلَمُ بحُقيقةِ الحالِ، والعَبدُ لا يُخلو عَن الاختِلالِ.

* * *